اللغةُ في غير سياقِ المواقفِ الحيّة: غُبار،
وهي في سياقها: غيث!

.....

في تلك الحِقب المتناوحِ دوحها من تاريخ البشريّة اصطرعت لغاتٌ، وتزاوجت لغاتٌ، كما هي سنة الله في كل الحياة. وكان ذلك المصطرع وذلك التزاوج ضرورة حيويّة، لا مناص منها، ولا غنى عنها. ولقد احتكّت العربيّة كغيرها باللغات الأجنبيّة، قبل الإسلام وبعد الإسلام، وفي كلّ العصور، في الجزيرة العربيّة وخارج الجزيرة العربيّة، فأفادت واستفادت، ودخلت كلمات وخرجت كلمات، وكان ذلك عامل قوّة للعربيّة وإثراء لها، أكثر ممّا كان عامل ضعف واختلاط. لا نقول هذا تهوينًا من تأثير اللغات غير العربيّة على العربيّة- ولاسيما حينما يصاحب ذلك التأثيرَ ضعفٌ في العربيّة، وحينما يأتي وأهل العربيّة منقسمون بين لهجاتهم، أو لمّا يصبح إحلال غير العربيّة محلّ العربية في التعليم العامّ وفي الإعلام أمرًا استراتيجيًّا مشرعنًا ورسميًّا. إلاّ أننا نقارن بين خطورتين، إجابةً عمّا يسعى إليه المدافعون عن العاميّة - عادة- من صرف الأنظار لدى انتقادهم وانتقادها عبر التهويش بغيرها، في نفي ضمنيٍّ لتهديدها التاريخيّ للغة العربيّة والثقافة السليمة. وهما تهديدان حقيقيّان، بوصف العاميّة ردّة - في واقع الأمر- إلى عصور الأميّة من جهة، وردّة إلى عصور الفُرقة والتخلّف الاجتماعيّ من جهة مصاحبة. والحنين إلى الماضي، بكلّ ما حَمَل، حنينٌ باطنٌ مرافقٌ للإنسان البدائي، يفور في النفوس في حِقب معيّنة، ولأسباب شتّى، وفي ظروف من الزمان خاصّة. وهو يستبدّ بالعقل ومنطق التاريخ، ما لم تكبحه سلطة العقل لدى الفرد، أو سلطات السياسات الوطنيّة الرشيدة لدى الدّول، وما لم تحاصره الخطط التربويّة والتعليميّة المسؤولة، والمنابر التثقيفية الأمينة على ترقية الجَمْع، لا على تسليته وإغوائه، والجادّة في علاجه، وإن جراحيًّا، إذا لزم الأمر، لا المطمئنة إلى تسكين أورامه وأدوائه. لذلك أشرنا في المساق السابق إلى أن اللغات الأجنبيّة تظلّ أقلّ خطورة من العاميّات، من حيث اللغات الأجنبيّة عوامل خارجيّة، والعاميّات فَتْكٌ داخلي ومتواصلٌ بجسد اللغة وروحها.

إن الشّعر العاميّ- إلى جانب إفساده اللغة- عامل توطيدٍ لبعض القيَم الاجتماعيّة البالية، وغير الحضاريّة، ولا حتى الإسلاميّة، كالتعصّب القبَليّ، والعنصريّة العربيّة، ومواقفنا الجاهليّة الموروثة حيال المرأة، ونحو تلك من الأمراض الإجتماعيّة، التي لا تجد لها مراتع ومنابر بثّ أفضل من قصائد عاميّة.

وتيّار هذا البحر المتلاطم اليوم من غِيار الماضي يتصاعد شعريًّا، ترفده، مع الشّعر، فنونٌ أخرى، وإن كان الشّعر هو نسغها الأوّل وأوار نارها الوقّادة. من تلك الفنون: الروايات الشعبيّة، والقصص الشعبيّة، وما يسمى تاريخ القبائل، وكُتب الشّعر الشعبي، ومؤخّرًا: الأعمال الدراميّة. وتبرز في هذا العامل الأخير تلك الظاهرة من المسلسلات البدويّة المتناسلة، في رمضان وغير رمضان! وهي مسلسلات لم تعُد تروي غليلها التجاري حكاية بسيطة تصوّر البادية وحياتها، على غرار جَدّة تلك المسلسلات، مسلسلة (وضحاء وابنِ عجلان)، بل أصبحت تنقّب في التاريخ القَبَلي، وأيّام ثارات العرب وغزواتهم، وذكريات العداوات، والسلب والنهب، مسمّية القبائل والأعلام والمواطن بأسمائها. وليس بخافٍ أن النبش في ذلك مِعْوَل هدم لنفسه وتغرير بغيره للارتكاس نحو الأدنى والأضحل! وإلا فما فائدة التعليم إذن؟ وأين رسالته؟ وما الفرق بين المتعلّم والأمّيّ؟!

وفي هذا الصدد قد يعجبني وعي بعض شعراء العاميّة ويلفتني تواضعهم، حينما يُعربون عن إجلال الفصحى وأدبها، مشيرين إلى أنها نموذجهم الأسمى، الذي يطمحون إليه. غير أن ذلك يبقى وعيًا نظريًّا، ينكشف عواره حين يفعل هؤلاء ما لا يقولون، وهم قادرون على أن يفعلوا ما يقولون. ذلك أن كثيرًا منهم لا تنقصه الموهبة، ولا حتى المَلَكة اللغويّة القابلة للتطوير، ولا يُعجزه أن يصل إلى نموذجه المطموح فيه، ولكنّه الإلف الغلاّب، والضغط الاجتماعيّ الطاغي، والضخّ الإعلامي الموجّه، مع استكانة الشاعر عن قبول التحدّي، والإبداع في جوهره تحدٍّ للإلف والضغط والتوجيه!

ويأتي في نطاق تخذيل هؤلاء عن تكوين رؤيتهم ورفع سويّتهم مَن يمكر بهم - لصرفهم عن أن يستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى- إذ يسعى إلى تفريق العربيّة شيعًا وأحزابًا، وكيلها بمكاييل مختلفة، لغويّة وجماليّة، محتجًّا في هذا المجال بأن في هذا الشعر العامّي جماليّات، أيّها الناس، وفي بعضه حِكَمًا ومعاني قيّمة! وقد ذكرنا في مقالة سالفة أن الجماليّات قائمة أصلاً في كل شعر يستأهل هذا الاسم، والحِكَم والمعاني موجودة في كل لُغة بشريّة، وإنما الإشكال في هذا النمط منَ الشعر هو في عربيته الفاسدة، وحمولاتها من المضامين الرؤيويّة والمرتكزات القيميّة المضرّة بالتنمية الوطنيّة.

وعليه، فإن من الحقّ القول: إن أيّ شعر عامّي اليوم من إنسان متعلّم يُعدّ خَيانة للغة العربيّة، وللثقافة الاجتماعيّة، وطموحاتنا التعليميّة! لا مندوحة في الصدع بهذا وإن أزعجنا. ذلك أنه إذا كان الجيل الماضي من غير المتعلّمين معذورًا في التعبير شعرًا بلغته الميسورة، فأين عُذر المتعلّم الآن؟ والأدهى أن يكون شاعرنا العامّي معلّم لغتنا العربيّة! وأي انفصام معرفيّ ثقافيّ بعد هذا؟! بل لقد يُجيد صاحبنا لغات غير العربيّة، إجادةً كانت العربيّة بها أولى، وربما راودته نفسه إلى أن ينظم بتلك اللغات شعرًا، في الوقت الذي يصرّ فيه على عدم الاقتراب من الفصحى! وعندئذ ستشعر أن مثل هذا كارهٌ لنفسه، وللعربيّة، لغةً وانتماءً، بوعي أو بغير وعي.

ثمّ عن أيّ جماليّات استثنائيّة نتحدّث عنها في الشعر العامّي؟ أم أيّ حِكَم كُبرى في الشعر العامّي؟ فلو جُمع كلّ الشعر النبطيّ والعامّي في العالم العربي، بقضّه وقضيضه، ما أضاف معنى فريدًا، ولا اقترح صورة نادرة، ولا ابتكر جديدًا يُذكر فيُكبر على ما هو موجود ومكرور على امتداد تراث العرب الفصيح منذ العصر الجاهلي إلى اليوم. فليتحدّث هؤلاء إذن عن الجانب التسلويّ من المسألة، وليَدَعُوْا مزاعم الإضافات الإبداعيّة الخارقة جانبًا.

لقد كانت خياليّة الشاعر العربي القديم أرقى وأوسع وأعمق بكثير من خياليّة الشاعر العامي الآن. ولتفصيل البيان في هذا نسوق مساقنا الآتي، بمشيئة الله.

aalfaify@yahoo.com
http://alfaify.cjb.net

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٥١٥١» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤

مساقات

د. عبدالله بن أحمد الفَيْفي

غُبار اللغة الغابرة!

الماضي القريب والبعيد قد آتى أُكله من تأريث اللّهب الخفيّ والنفخ في بقايا الجمر في النفوس. ليس هذا فحسب، بل إنها من جهة أخرى تستعيد إلى المشاهدين بعض الأفكار الوثنيّة، أو الشركيّة، أو الجاهليّة، وتقدّمها تراثًا إلى عقول جيل لم يسمع بها، وذلك كفكرة عقر النوق على القبور، أو تقديم المرأة كصفقة مصلحيّة: (عطيّةٍ ما من وراها جزيّة)، أو تمجيد قُطّاع الطُّرق وأرباب السوابق في الغزو والنهب والسلب، وإبرازهم إلى السيدات والسادة المشاهدين، وإلى ناشئة الشباب والشابّات، على أنهم أبطال العرب القَبَليّون! ولكل قبيلة عربيّة أبطالها، وتاريخها المجيد، منذ الجاهليّة الأولى إلى آخر الجاهليات التالية! ويظلّ الشعر الشعبويّ حاضرًا أبدًا في ذلك كله، رافعًا عقيرته كأعمدة البيوت.

في هذا المضمار المحموم تظهر لغةٌ أخرى، ويبرز أدبٌ بديل، وتنشر أجواء (قديمة-جديدة). فيها يُصرف الناس- حتى المتعلم منهم- عن الفصحَى ويُغرون بالعاميّة أكثر فأكثر. وفيها يتّجه السباق بعكس الاتجاه المعقول والمنشود، ويولّي الشاعر وجوهه خلاف ما كان ينبغي لشاعر متعلم، يُحسن قول الشعر بالعربية الفصحَى لو أراد. إذ كان يُفترض- مبدئيًّا- أن يكون التعليم باعثَ وعي شخصيّ، وتميّز اجتماعيّ، وأن يصبح حامله ذا رسالة إصلاح ثقافيّ وتطوير لغويّ، جاعلاً من نفسه قدوة نحو الأجمل والأكمل، لا

مداخلات لغوية

أبو أوس إبراهيم الشمسان

أمضمر فاعل نعم أم محذوف؟

ذهب النحويون إلى أن فاعل (نعم) إما اسم ظاهر معرف بـ(أل) تعريفًا دالاً على الجنس، كما في قولك: (نعم الرجلُ زيد)، وإما ضمير مستتر مميز بنكرة، كما في قولك: نعم رجلاً زيد. وليس يشكل النمط الأول الذي ظهر الفاعل فيه، فقد أسند الفعل إلى اسم الجنس، ليكون المدح للجنس عامة ثم يخص به فرد هو زيد، والهدف بيان جهة المدح وهي الرجولية. وأما النمط الثاني فهو مشكل لأن الفاعل ضمير لا مرجع له فهو إضمار لم يُسبق بإظهار، والضمير ليس يدل على الجنس دلالة ما اتصلت به (أل الجنسية)، ورأى النحويون الإضمار هنا جائز فهو من قبيل الإضمار على شريطة التفسير، بمعنى أن التمييز المذكور أغنى عن الإظهار. والقول بمجيء الفاعل ضميراً مستتراً قد يتوقف فيه لأمرين، الأول أن التمييز الذي يصاحب الضمير قد يأتي مع الظاهر أيضاً، والآخر أن الضمير مصنف عند النحويين في المعارف لأنه يعين معهوداً.

وأما تمييز الفاعل الظاهر فجاء في قول الشاعر:

نعم الفتاةُ فتاةً هندُ لو بذلت
ردَّ التحية نطقًا أو بإيماء

واختلف النحويون في تمييز الفاعل الظاهر بين مجيز ومانع، فمنعه سيبويه، وأجازه المبرد وابن السراج، والفارسي (ابن يعيش، ٧: ١٣٣)، قال ابن عقيل (٣: ١٦٥): (وفصَّل بعضهم، فقال: إن أفاد التمييزُ فائدةً على الفاعل جازَ الجمعُ بينهما، نحو: (نعم الرجلُ فارساً زيدٌ) وإلا فلا، نحو: (نعم الرجل رجلاً زيدٌ)، فإن كان الفاعل مضمراً جاز الجمع بينه وبين التمييز؛ اتفاقًا، نحو: (نعم رجلاً زيدٌ).

والذي أراه حلاً للخروج من الإشكالين هو القول إن الفاعل ظاهر في كل أحواله، ولكنه قد يذكر كما في قولك: نعم الرجل فارساً زيد، وقد يحذف كما في قولك: نعم فارساً زيد، ويكثر حذف هذا الفاعل إن كان لفظه مطابقاً لفظ التمييز، كما في (نعم الفتاةُ فتاةً هند)، فيمكن الحذف (نعم فتاةً هند). وقد يقال إن الفاعل عمدة وجزء من الفعل فكيف يحذف، والجواب أن التمييز أغنى عنه فساغ حذفه.

وقد يقال ما الفائدة من مخالفة النحويين في مذاهبهم مع أنهم مختلفون، فالجواب هو طلب الاختصار، فمن السهل ترتيب المسألة على النحو التالي: تأتي جملة المدح (نعم الرجل رجلاً زيد) فنعم لها (فاعل وتمييز للفاعل ومخصوص بالمدح)، ثم إنّ هذه الجملة قد يحذف منها التمييز استغناء بالفاعل، فيقال (نعم الرجل زيد)، وقد يحذف الفاعل استغناء بالتمييز، فيقال: (نعم رجلاً زيد).

ونكون بهذا وحدنا شكل الفاعل، فبعد أن كان ظاهراً مرة وضميراً مرة أخرى صار ظاهراً فقط؛ غير أنه قد يذكر وقد يحذف. ونكون بهذا خرجنا من حرج وجود ضمير فاعل لنعم والضمائر معرفة تعريف عهد لا يلائم ما تقتضيه نعم من كون فاعلها دالاً على الجنس. وبقي أن نقول إن إعراب (زيد) مبتدأ مؤخراً وجملة (نعم الرجل) خبره أولى من عدّ خبره محذوفاً أو عده خبراً لمبتدأ محذوف، لأن هذا الممدوح جائز الحذف، كما في قوله تعالى: {وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} (الذاريات:٤٨)، أي فنعم الماهدون نحن. فحذف المبتدأ وحده أولى من حذف المبتدأ والخبر معاً.

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٧٩٨٧» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤